الفصل التاسع

شـــرق وغـــرب

obeikandl.com

obeikandl.com

الشرق شرق والغرب غرب

«الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا» .

إن كبلنج على حق .

فلن يلتقي الشرق والغرب أبدًا ما دامت هذه هي طريقة فهم الغرب للشرق ، وما دامت هذه هي الطريقة التي تتناول بها الصحافة في الغرب معالجة مثل هذه الأحداث التاريخية وتحليلها للشعوب الأمريكية والإنجليزية والفرنسية .

وأشفقت على هذه الشعوب ، فالرجال الرسميون في الغرب وصحافة الغرب كلهم يخفون الحقائق عن شعوبهم عمدًا وبطريقة تجعلنا دائمًا على حذر ، ودائمًا متيقظين ، في الوقت الذي تعكس فيه على شعوب الغرب القلق وصنوفًا كثيرة مما يسمونه الحرب الباردة .

ومن سخرية القدر أن هذه الحرب الباردة كان مصممو هما يريدونها لنا حتى نخاف فنظل داخل الدائرة الاستعمارية الخبيثة ، ويشاء الله ألا تنقلب إلا عليهم بل وتعكسها صحفهم في كل يوم على شعوبهم .

خوفًا من الشرق الذي تحرر ، ورعبًا من الشرق الذي يريد أن يهلك الغرب .

إلى آخر ما تقوله صحافة الغرب كل يوم ومحوره الوحيد هو أن في حرية الشرق خطرًا يهدد كيان الغرب .

ويظهر أن عقلية هؤلاء القوم قد فسدت نهائيًا وأن نفوسهم قد انحطت بها عقدة الاستعمار إلى درك لا يرجى معه فهم أو إقناع .

ومرة أخرى يصبح كبلنج على حق .

فإن الصحافة الأمريكية والصحافة الإنجليزية والصحافة الفرنسية تردد كلها نغما واحدا هو الدعاء لله ألا يسفر اجتماع بريوني ـ حين تم ذلك الاجتماع ـ عن كتلة حيادية تصبح كتلة ثالثة في هذا العالم .

نفس عقلية الكتل والأحلاف !

ولقد شمر كل كاتب عن ساعده في تلك الصحف وراح يثبت لقرائه أن قيام هذه الكتلة أمر غير ممكن عمليًا بينما انبرى آخر يتكهن بقيام كلتة أخرى تسمى كتلة شرق البحر الأبيض المتوسط وتضم يوغوسلافيا واليونان ومصر ولبنان وسورية والأردن .

إلى آخر ما جاء في خيال هؤلاء الموجهين ، ولكن المؤسف أن هذه الصحف في بلاد الغرب الثلاث الكبرى تجمع على أن المجتمعين في بريوني يفكرون على طريقة الكتل والأحلاف الغربية .

ومرة ثالثة يصبح كبلنج على حق .

إنه ما من شك في أن اجتماع بريوني يعتبر أخطر حدث تاريخي في فترة ما بعد الحرب ، ومبعث هذه الخطورة يتمثل في الأمور الآتية :

١ ـ أنه لم يعد مصير للعالم ملكً لدولة أو لدولتين ، ولم تعد مصائر البشرية وسلمها وأمنها من اختصاص ما كان يسمى بالكبار لأن تعبير الكبار قد انتهى أوانه .

٢ ـ إن أوروبا ـ لأول مرة في التاريخ ـ تخرج في شخص الزعيم تيتو على تقاليدها الموروثة فيضع تيتو يده في يد نهرو زعيم آسيا وفي يد جمال زعيم إفريقيا من أجل الحرية والسلام والتعايش .

ومغزى هذه المصافحة هو أنها مصافحة شعوب لا مصافحة حكام .

٣ ـ إنه نداء لكل شعوب الأرض يفتح لها طريق الإخاء والمحبة .

٤ ـ إنه ضربة في الصميم لبقايا الاستعمار الذي يترنح اليوم ، وأمل لكل الدول المستعبدة في الخلاص والتحرر .

وعبث أن يقلق الحكام والكتاب في الغرب نفوسهم ونفوس شعوبهم بفكرة الكتلة الثالثة .

فالكتلة الثالثة قد تشكلت فعلاً وعملاً ولا داعي لأن يوقع الثلاثة في بريوني وثيقة هذا التشكيل التي تقلق بال هؤلاء الحكام وأولئك الكتاب .

إن الكتلة الثالثة اليوم حقيقة قائمة وهي أقوى الكتل على الإطلاق . . .

إنها كتلة الشعوب التي تريد أن تستثمر مواردها لخير أبنائها ورفاهية شعوبها .

إنها كتلة الشعوب التي تعترف لكل إنسان بحقه في الحياة وحقه في رزقه وحقه في أمنه وحقه في وطنه وحقه في حياة أفضل ومستقبل مطمئن في عالم يؤمن بالقيم وبالحب وبالمساواة .

إنها كتلة الشعوب التي قاست من الاستعمار الذي سلب أموالها من أجل أن يبنى رفاهية في لندن وباريس ولاهاي وكثير من المدن الأخرى .

إنها كتلة الشعوب التي تريد السلام للسلام والحرية للحرية ، فهي لذلك لن تلجأ إلى مواثيق كميثاق الأطلنطي تضحك به على الناس وإنما ميثاقها كامن في صدور أبنائها في إفريقيا وفي آسيا وفي يوغوسلافيا ، وإرادة هذه الشعوب كفيلة بإملاء هذا الميثاق من غير أن يكتب ومن غير أن يوقع .

فسلام لك يا تيتو يا رجل أوروبا الحر .

وسلام لك يا نهرو يا رجل آسيا المكافحة .

وسلام لك يا جمال يا فخر شعبك وأصدقائك وزعيم أهلك وزعيم إفريقيا .

ما هو الشرق وما هو الغرب؟

إنني أعتبر قرار تأميم قناة السويس ضربة من ضربات القدر التي تأتي لكي تختم مرحلة معينة من تاريخ البشرية ولتبدأ في نفس الوقت مرحلة جديدة بتطور جديد وتاريخ جديد . . . .

والذي يقرأ صحف إنجلترا وأمريكا وفرنسا وكثير من دول أوروبا اليوم ومنذ أن أممت قناة السويس سيرى أن كلمة غرب وشرق تتردد في كل سطر ، وسيسمع نغمة جديدة تحذر الغرب من الشرق تارة ، أو تحرض الغرب على الشرق تارة أخرى ، وفي هذا التحذير أو ذلك التحريض تستطيع أن تلمس حقيقة واضحة جلية هي أن هذا العالم ينقسم إلى شرق وغرب وأن عقلية أهل الغرب قد نشأت وتربت على فهم الشرق أو التعامل معه من خلال مبدأين فقط أحدهما هو الحذر والتحذير وثانيهما هو الاعتداء والتحريض .

وحين أقول هنا شرق وغرب فأنا لا أعني ما اصطلح عليه اليوم من تعريف لأكبر كتلتين متنازعتين في العالم حين أطلقوا على روسيا ومن معها «شرق» وعلى «أمريكا» ومن معها «غرب» وإنما أنا أعود بهذه التسمية إلى أصولها عبر التاريخ ومع ركب الزمان ، وقد يكون ما عناه شاعر الاستعمار الإنجليزي كبلنج هو التفسير الأقرب إلى ما أعنيه من هذه التسمية حينما قال في قصيدته المشهورة :

الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا .

وحين نريد أن نضع حدودًا تفصل بين الشرق والغرب حتى نستطيع أن نتناول كل ناحية بالدرس والتحليل من التاريخ والواقع فإننا سنواجه صعوبات

كثيرة .

فهل تكون هذه الحدود جغرافية مثلاً ؟

أم تكون هذه الحدود حضارية ، بمعنى أن تكون مميزات الحضارة عبر التاريخ واشتراكها أو انبثاقها من منبع واحد لشعوب مختلفة هي الحد مثلاً الذي نجمع به الغرب في ناحية والشرق في ناحية أخرى ؟

أم تكون هذه الحدود على أساس الجنس ، فنقول : إن جنسًا معينًا أو أجناسًا بذاتها تكون الغرب وأجناسًا أخرى تكون الشرق ؟

فإذا اتخذنا من الجغرافيا أساسًا وقلنا كما قال مفكرون من الغرب في القرن التاسع عشر : إن الخط الذي يفصل بين الشرق والغرب يمتد رأسيًا من الشمال إلى الجنوب عند انتهاء شرق البحر الأبيض المتوسط وكل ما يقع شرق ذلك فهو الشرق وكل ما يقع غرب ذلك فهو الغرب إذا قلنا هذا فإننا سنرتكب خطأ جسيمًا ، إذ أن مصر وفلسطين وليبيا وتونس والجزائر ومراكش ستقع كلها جميعًا في الغرب في الوقت الذي ترتبط فيه كل هذه البلاد بالشرق بروابط تاريخية وحضارية فضلاً عن أن جميع مقومات شعوبها شرقية بحتة ولا تشترك مع الغرب في قليل ولا كثير بل هي أبعد ما تكون عن الغرب . كذلك سترتكب نفس الخطأ بالنسبة لأستراليا ونيوزيلندا ، فإنهما بحسب هذا التقسيم هما في الشرق في الوقت الذي لا تربطهما بحضارة الشرق ولا تاريخه ولا مقوماته أية روابط بل هما أبعد ما تكونان عن العقلية الشرقية والبيئة الشرقية .

ولن نستطيع أن نتخذ من الجنس قاعدة أيضًا ، فالصين وهي شعب واحد يضم أجناسًا متعددة ، كذلك ينطبق الأمر على أمريكا وعلى روسيا .

لذلك فلا مخلص لنا إلا بالحضارة التي تكون العقلية وترتكز في مقومات تكون هي بذاتها المميزات الخاصة التي تميز الشرق عن الغرب ، وهنا نستطيع أن نحدد الشرق بكل الشعوب التي تكون حضارتها ويكون تاريخها من حضارة وتاريخ الشرق ، ونستطيع أن نحدد الغرب بنفس هذه الطريقة .

وبهذه الطريقة أيضًا لن تقع في الخطأ ، فإن تونس والجزائر ومراكش تقع في الخريطة ناحية الغرب ولكنها في الحقيقة من الشرق وحضارة وتاريخنا ، وكذلك تقع استراليا .

ونيوزيلندا على الخريطة في صميم الشرق ولكنهما في الحقيقة والواقع من الغرب حضارة وتاريخًا .

وقد أكون أطلت عليك أيها القارئ بهذا اللون من البحث ، ولكنه حيوي جدًا لنا في هذه المرحلة من مراحل وجودنا فنتعلم أن نحدد كل شيء وكما قلت لك في الفصول السابقة وكما تسير الحوادث في العالم اليوم نحن نواجه معركة لا تشترك فيها مصر وحدها وإنما هي معركة بدأت منذ قرون طويلة بين الشرق والغرب ، وهي معركة تحدد مصيرها نهائيًا بقرار تأميم قناة السويس لذلك نجد أن صحافة الغرب وحكام الغرب اليوم في فزع وفي ريب منذ أن أعلن قرار التأميم ، حتى أن هذا الفزع وذلك الرعب اتخذا شكلاً هستيريًا في كل دوائرهم لدرجة أنهم حشدوا الأساطيل وجهزوا الجيوش وأعلنوا سافرًا على العالم أجمع أنهم يعدون للحرب والعدوان بعد أن كانوا يطلقون على أنفسهم العالم الحر الذي يدافع عن الحرية ويدافع عن العدوان !

وكذلك لم تستطع صحافة الغرب أن تكتم الحقيقة فصاحت في جنون تردد الخوف من الشرق وتحرض على الشرق وتبكي وتندب على مصير الغرب

إذا لم يخضع هذا الشرق .

وكما قلت لك في صدر هذا المقال ، فإن نظرة الغرب إلى الشرق تنحصر في مبدأين إما أن يكون أحدهما حذرًا ولذلك لابد من أخذ الحيطة والإعداد المستمر للمؤامرة ضد الشرق وإما أن يكون المبدأ الثاني وهو التحريض على إخضاع الشرق وكتم أنفاسه ، وغرض الحرب في الحالتين هو الحصول على موارد الشرق الغني لإسعاد المجتمع الغربي وبنائه ، ومنع هذا الشرق من كل تقدم أو تعليم أو قوة حتى يظل ضعيفًا جاهلاً متأخرًا ويظل الغرب يفرض حمايته عليه . . .

وكيف تحدد مصير هذه المعركة بقرار تأميم قناة السويس هذا ما سأسرده فيما يلي .

obeikandl.com

حقيقة المعركة

قلت في تعريف الشرق وتعريف الغرب : إن نظرة الغرب إلى الشرق تنحصر في مبدأين إما أن يكون أحدهما حذراً ولذلك لابد من أخذ الحيطة والإعداد المستمر للمؤامرة ضد الشرق ، وإما أن يكون الآخر وهو التحريض على إخضاع الشرق وكتم أنفاسه ، وغرض الغرب في الحالتين هو الحصول على موارد الشرق الغني لإسعاد المجتمع الغربي وبنائه ، ومنع هذا الشرق من كل تقدم أو تعليم أو قوة حتى يظل ضعيفًا جاهلاً متأخراً وحتى يظل الغرب يفرض حمايته عليه .

فما هي حقيقة هذه المعركة ؟

إننا لكي نبحث في حقيقة هذه المعركة لابد لنا من أن نتناول كل ظاهرة ظهرت من الغرب في معركة قناة السويس بنفس الاهتمام الذي نتناول به الحقائق التاريخية والحضارية ونحن نتقصى حقيقة هذه المعركة التي هي في حقيقتها أيضًا ختام لمأساة سيطرة الغرب على الشرق .

ولقد بدت من الغرب ظاهرة لها أهمية قصوى في هذا البحث .

فإن رئيس وزراء فرنسا صرح في أوج انفعال من انفعالاته أن على المسلمين أن يثقوا في معونة فرنسا وأنها تدخر الخير العميم للإسلام والمسلمين .

ثم لم يلبث المسؤولون في إنجلترا أن عقبوا بمثل هذا التعقيب .

إلا أن صحف الغرب كانت أوضح فقد نادت علانية بأن لمعركة معركة الإسلام والعرب ضد الغرب المسيحي ، بل نادت صحف أخرى بأن الشرق

الإسلامي يريد أن يفتك بالغرب المسيحي .

وهذا تضليل متعمد وقلب للحقائق ، فإن الشرق الذي قام لكي يواجه الغرب متحديًا في معركة قناة السويس ، هذا الشرق يمتد بين الصين شرقًا إلى المحيط الأطلنطي غربًا .

وفي الصين شعب تعداده ستمائة مليون نسمة ، ولكن الصين على بكرة أبيها شعبا وحكومة وقفت لتتحدى الغرب بالستمائة مليون .

وفي الهند ثلاثمائة وثمانون مليونًا . وقفت على بكرة أبيها شعبًا وحكومة لتتحدى الغرب بالثلاثمائة والثمانين مليونًا .

إذن المسألة ليست مسألة الشرق الإسلامي ، وإنما هي مسألة الشرق الذي خدعه الغرب واستعمره واستنزف دماءه ، هذا الشرق يريد اليوم أن يثأر لنفسه ليس على طريقة الغرب بالعدوان والاغتصاب ، وإنما يريد هذا الشرق أن يعيش حرًا مستقلاً تسيطر كل أمة فيه على مصائرها ، وتستغل كل أمة فيه خيرات أرضها لإسعاد أبنائها ، وتحترم كل أمة فيه استقلال غيرها من أمم الشرق والغرب على السواء .

إن أكثر من ألف وخمسمائة مليون نسمة قامت لتؤيد مصر شعوبًا وحكومات من مختلف الديانات والعقائد بعزم واحد وإيمان واحد .

فقول الغرب إذن أن الشرق الإسلامي يريد أن يفتك بالغرب المسيحي قول يحمل المغالطة بل التهجم على الواقع .

ولكنه كما قلت ظاهرة من ظواهر هذه المعركة التي كانت لابد أن تقع بين الشرق والغرب لكي ينتهي تاريخ ويبدأ تاريخ .

ولو أن النزاع على قناة السويس كان بين الهند والغرب مثلاً لسمعنا أيضًا من يقول في صحف الغرب أن الشرق الهندوسي يريد أن يفتك بالغرب المسيحي .

أو لو أن النزاع على قناة السويس كان بين بروما والغرب مثلاً لسمعنا أيضًا من يقول في صحف الغرب أن الشرق البوذي يريد أن يفتك بالغرب المسيحي .

وما أريد أن أستخلصه من هذه الحقيقة هو أن المعركة بين الشرق والغرب موجودة وقديمة قدم حضارة الشرق وسطحية الغرب .

وأن هذه المعركة موجودة طالما كان الشرق غنيًا بالموارد والكنوز التي تخرج من بطن أرضه وخصب تربته ووفرة محصوله من كل ألوان الثمار .

وأن هذه المعركة ستستمر ما دام فهم الغرب للشرق مبنيًا على أسس كلها خاطئة وجائرة وتتنافى مع كل شرائع الأرض والسماء .

فما هي هذه الأسس الخاطئة الجائرة ، وكيف نشأت وتولدت وصارت إلى ما صارت إليه في معركة قناة السويس من تهديد لأمن البشر وتنكر لكل ما هو حق وعدل وخير ؟

كيف يحاول الغرب أن يستغل الأديان في نشر العدواة والبغضاء وهي كلها تأمر بالمحبة والسلام ؟

هذا ما سأسرده في الفصول القادمة .

الأسس الخاطئة

وقع في يدي مقال لجريدة سويسرية هي جريدة «جورنال دي جنيف» نشرت الجريدة في يومي ١١، ١٢ من شهر يوليه سنة ١٩٥٦ تحت عنوان «أن الجزاء الحق من جنس العمل» .

وهذا العنوان هو عبارة عن كلمة قالها كليمنصو السياسي الفرنسي وهو يحتضر ، والمقال عبارة عن تحسر على مصير إنجلترا وفرنسا العظيمتين في نظر كاتبه وتحريض لهما من ناحية أخرى ، إلا أن استهلال المقال ونهايته هما اللذان لهما أكبر الاهتمام في نظري إذ أنهما يكونان حلقة من حلقات هذا البحث «الأسس الخاطئة» .

قال الكاتب وهو يستهل مقاله :

«وضعت مصر يدها على قناة السويس ، وكان عملها هذا تهديداً مباشراً لأوروبا .

واختتم الكاتب مقاله قائلاً :

ورحنا نشاهد بلاداً كاليونان التي كانت حتى الأمس القريب موالية لأوروبا بل أكثر من ذلك موالية لإنجلترا تؤيد سياسة ناصر .

كما أننا نشاهد دولاً أخري ترفض تحديد موقفها من مسألة قناة السويس بينما يقوم من أعماق آسيا ملايين من الرجال الذين يرزحون تحت عبء سوء التغذية والفقر والذين تجيش في صدورهم إرادة جامحة في نيل استقلالهم بالهجوم على المدنية الأوروبية .

ها نحن نواجه التحدي ، فهل يكون في وسعنا قبوله والدفاع عن تراث المبادئ الإنسانية والمبادئ المسيحية التي لم نعرف كيف نحترمها روحًا ونصًا؟» .

وفي الفصل السابق قلت :

«وما أريد أن أستخلصه من هذه الحقيقة هو أن المعركة بين الشرق والغرب موجودة وقديمة قدم حضارة الشرق وسطحية الغرب ، وأن هذه المعركة ستستمر ما دام فهم الغرب للشرق مبنيًا على أسس كلها خاطئة وجائرة وتتنافى مع كل شرائع الأرض والسماء .

وتساءلت في نهاية المقال :

فما هي هذه الأسس الخاطئة الجائرة ، وكيف نشأت وتولدت وصارت إلى ما صارت إليه في معركة قناة السويس من تهديد لأمن البشر وتنكر لكل ما هو حق وعدل وخير ؟

وكيف يحاول الغرب أن يستغل الأديان في نشر العداوة والبغضاء وهي كلها تأمر بالمحبة والسلام ؟ » .

وهكذا نرى أن مقال الجريدة السويسرية يلقي أضواء صريحة على حقيقة المعركة الدائرة اليوم . فاسترداد مصر لقناة السويس في نظر الكاتب السويسري تهديد مباشر لأوروبا .

ثم هاجم ـ وهذا هو لب المعركة ـ آسيا بملايينها الهائلة وهو ينعي على اليونان عدم ولائها لأوروبا .

وينعي عليهم أنهم أيدوا مصر في ممارسة سيادتها ، ويعتبر أن تصميم

هذه الملايين على نيل استقلالها هجوم على المدنية الأوروبية .

ثم يختم الكاتب مقاله باعتبار كل ذلك تحديًا للمبادىء الإنسانية والمبادىء المسيحية .

وقد تطوع الكاتب السويسري الأوروبي بالرد على تساؤلي في وضوح وجلاء .

فطريقة فهم الغرب للشرق لا تتعدى اعتبار هذا الشرق ملايين من الهوام الجائعة العارية الجاهلة وأن على الغرب أن يتولى أمر الوصاية عليها باسم المبادئ الإنسانية وباسم مبادئ الديانة المسيحية وباسم المدنية الأوروبية .

وفي هذا أيضًا تهجم على الحقيقة وعلى التاريخ وعلى كل القيم البشرية.

فأما أن للغرب الولاية على رسالة المسيحية وتفسيرها هذا التفسير الذي يتنافى مع مبادئها وأصولها ثم إقحامها في هذه الدعوى الاستعمارية التي تقوم على البغضاء وبث الكراهية بين بني البشر فأمر لا نقبله نحن في الشرق لأننا نعرف المسيحية ومبادئها ، ولأن منا المسيحيين وأرضنا هي مهدها ومن أرضنا خرجت هذه الرسالة إلى أوروبا الجاحدة .

نحن في الشرق على اختلاف دياناتنا وعقائدنا نعرف المسيحية ونحترمها وننزهها عما يريد الغرب أن يلصقه بها .

فالبوذي والهندوكي والمسلم والكونفوشي ومسيحيو الشرق وأقباطه يعرفون المسيحية كما لم يعرفها الغرب أو يريد أن يعرفها .

والغرب في تطفله على المسيحية ينسى أن هؤلاء الملايين الذين يصفهم

بالعراة الجياع في الشرق هم أصحاب الحضارات يوم لم تكن لأوروبا حضارة، وهم أصحاب الديانات يوم لم تكن لأوروبا ديانة وهم أصحاب الحكمة يوم كانت أوروبا تتيه في ظلمات الجهل وتعيش على السحر والخرافات . . . .

والشرق مهد المسيحية يعرف أن المسيحية قامت على مبدأين أولهما هو الإيمان وثانيهما هو المحبة .

فأين هذه المبادئ مما يريد الغرب أن يتوسل به باسم المسيحية ؟

والشرق مهد المسيحية يعرف ويعلم أن المعلم الأكبر لم يكن يفرق بين أبناء البشر بل أن رسالته تنادي إلى يومنا وإلى قيام الساعة بالمحبة بين سائر أبناء البشر .

ولو أن رجلاً ذا بشرة سوداء أو صفراء تقدم للمسيح لكي يشفيه من مرضه أو علته للقى من المسيح ما يلقاه الأبيض على السواء .

فهل يفهم الغرب رسالة المسيح كما نفهمها نحن الشرق ؟

لا ، إنهم في غمرة المدنية المادية التي أحاطت بكل مبادئهم تنكروا للمسيحية روحًا ونصًا .

وهم الذين ابتدعوا رسالة الرجل الأبيض وفرضها على بقية العالمين الذين سموهم ملونين .

وهم الذين يستحلون قتل الأبرياء إذا طالبوا بحق تقرير مصيرهم في بلادهم ، وهم الذين جعلوا من القرصنة شجاعة .

وهم الذين يعتبرون استنزاف خيرات الناس وقهرهم حقوقًا مشروعة،

وهذه نقطة أساسية في الخلاف بين الشرق والغرب .

فنحن في الشرق نعتبر الأديان ملجأ روحيًا تصفو فيه نفوسنا من أكدار هذه الحياة .

وهم في الغرب يريدون أن يستغلوا الدين في أساليبهم لقهر الناس وفرض إرادتهم وسيطرتهم .

ونحن في الشرق نعتبر المسيحية رسالة عالمية سمحة لا تختلف في مبادئها مع سائر دياناتنا ومعتقداتنا لأنها كلها تحض على المحبة والإخاء والسلام .

وهم في الغرب يعتبرون أنفسهم أولياء على المسيحية ويعتبرون كل ما عداها جهالة وخرافة وبربرية .

وهكذا يتورطون في الغرب وهم يقحمون المبادىء المسيحية في أطماعهم الدنيوية ونسوا أننا في الشرق مهد المسيحية وأصل الأديان .

obeikandl.com

مدنية الغرب

لقد كانت معركة قناة السويس ميدانًا التقى فيه الشرق والغرب لأول مرة منذ قرون كان الغرب فيها يستعبد الشرق ، وظن الغرب أن لا قائمة ستقوم للشرق ، لذلك رأينا أن الغرب يفقد أعصابه لأول مرة في تاريخه الحديث على صورة وصفها معلق أمريكي أبلغ وصف حين قال :

« إن بريطانيا تتصرف لأول مرة كدولة لا تثق في نفسها ، وكان مشهورًا عن بريطانيا طوال قرون الاستعمار السابقة أنها تعتمد على هيبة كانت تحكم بها الملايين وترهبهم من غير أن ترسل جنديًا بريطانيًا واحدًا » .

لم يقف الأمر عند هذا الحد بل ارتفعت الصيحات في أوروبا تنادي بأن الحضارة الغربية في خطر وأن زعماء العرب وهم الحراس الأمناء على هذا التراث الإنساني يجب أن يحافظوا على هذه الحضارة وذلك التراث الذي يهدده الشرق اليوم في صحوته التحريرية .

وكأن حضارة الغرب وتراثها الذي تخاف عليه أوروبا وأمريكا لا تعيش إلا على أشلاء الشرق ، ولا تزدهر إلا إذا امتصت دماء الشرق ، ولكنها هي الحقيقة المخجلة .

فحضارة الغرب اليوم ليست حضارة بمعناها العلمي أو النظري وإنما هي مدنية ، وفرق كبير بين الحضارة والمدنية

فالحضارة تقوم أول ما تقوم على مقومات معنوية وروحية قبل أن يكون لها مقومات مادية ، لذلك نرى أن طابعها لا يكتفي بالمظهر وإنما يعتمد أول ما يعتمد على الجوهر .

والمدنية لا تعرف المقومات المعنوية أو الروحية على الإطلاق ، وإنما هي تتناول جوانب المادية البحتة في حياة الفرد والمجتمع التي لا تعدو أن تكون مظهراً ، كأن تحيل حياته كلها ميكانيكية مثلاً بالأزرار والآلات ، وهي لذلك لا تقيم وزنًا بل لا تعرف الجوهر في حياة الإنسان .

من أجل ذلك كانت الحضارة ولا تزال تعني أول ما تعني بالقيم الإنسانية العليا .

أما المدنية فإنها تعتبر القيم الإنسانية من مقومات تقدم البشرية .

وعلى هذا القياس ، ومما نراه اليوم نستطيع أن نعرف الفرق بين الحضارة والمدنية ونستطيع أن نعرف ما يسمونه حضّارة الغرب بمدنية الغرب .

وهنا يتضح خلاف آخر بين عقليتيْ الشرق والغرب.

فالغرب يعتقد أن مدنيته الحالية أن هي إلا حضارة هو الولي عليها ، وأن من أخص رسالاته أن يقهر الشعوب في الشرق على قبول هذه الحضارة الغربية في أشكال يحدد هو مفهومها .

فالغرب حين يدخل مثلاً نظامه الديموقراطي في شعب من شعوب الشرق فإنه لا يدخل ما يطبقه هو في بلاده وإنما يفرض على هذه الشعوب النظام الذي يريد لكي يحقق له السيطرة والتحكم .

ثم يلصق بهذا النظام اسم الديموقراطية وينسبه إلى الحضارة الغربية الجديدة.

والغرب حين يدخل العلوم إلى بلد من بلدان الشرق يكون قد أُبتلي بستعمار غربي فإن هذه العلوم لا تتعدى مراحل ساذجة أولية لأن مفهوم الحضارة الغربية عند الغرب هو أن لا يتعلم الشرق من علوم الغرب إلا

قشورها لكي تظل للرجل الأبيض السيادة والهيمنة عن طريق العلم .

ولا زالت شعوب كثيرة من التي ابتليت بالاستعمار تئن إلى اليوم لأنه لا يوجد فيها طبيب أو مهندس فهذه المهن في عرف الحضارة العربية مقصورة على الرجل الأبيض الممتاز وهي سبيله إلى السيطرة والسيادة .

وهناك مثل آخر على ذلك ، فإن بريطانيا تستقدم بعثات عسكرية من دول كثيرة في الشرق والغرب ، وتصادف أن كان بعض الضباط المصريين في بعثة من هذه البعثات سنة ١٩٥٠ وعندما عادوا كانوا يروون ان محاضرات بذاتها كانت محرمة عليهم هم وبعثات بقية البلاد الشرقية لأن في هذه المحاضرات أسرارا لا يجوز لغير الإنجليز والأوروبيين أن يعرفوها .

آي الرجل الأبيض مرة أخرى ، هذا هو مثل من مفهوم الحضارة أو على الأصح المدنية عند الغرب .

أما مفهوم الحضارة عند الشرق فإنه يختلف عن ذلك تمام الاختلاف .

فالشرق يعتز بأن أولى الحضارات التي عرفتها البشرية كانت في أرضه .

الحضارة الصينية التي أخرجت الحكمة والنور ، والحضارة الفرعونية التي أدهشت وتدهش العالم إلى اليوم بهذا التفوق في العلوم والفنون .

والحضارة الهندية التي تعمقت منذ القدم في أغوار الروح والمادة وأخرجت للناس حكمة وعلومًا وفنونًا لا تزال تراثًا مجيدًا إلى يومنا وإلى يوم الساعة .

والشرق يفهم الحضارة على أنها قيم قبل أن تكون مادة ، فقد رأينا أن الحضارة الصينية والمصرية والهندية أخرجت سلوكًا وآدابًا وقدست الأسرة ونظمت علاقة أفرادها ببعض وبالمجتمع وبالحاكم وتفوقت الحضارة الصينية

في تعريف الحكومة وواجبها والرعية وما يجب أن تكون عليه آدابها .

ولكن هذه الحضارات لم تسفر عن قيم إنسانية فقط ، وإنما أسفرت أيضًا عن علوم وفنون وهندسة وبنايات لازالت إلى اليوم شاهدًا على أصالة هذه الحضارات وتفوقها منذ آلاف السنين .

والشرق يفهم الحضارة على أنها بناء وتعايش بين الجميع لخير الجميع .

لذلك فالشرق يعتز بحضارته ويرفض مدنية الغرب .

ولذلك أيضًا صحا الشرق صحوة جبارة حين نفض عن نفسه غبار الاستعمار والسيطرة الغربية يريد أن يعوض ما فاته من تأخر لأن جذوة الحضارة جزء من دمائه وكيانه وهي إن كانت قد خبت بعض الوقت إلا أنها كانت مشتعلة في الداخل لأنها حضارة أصلية ذات جذور لا يمكن أن تموت .

ولذلك أيضًا فزع الغرب لأن صحوة الشرق كانت قوية ورهيبة وهو الذي اعتقد أنه قد استحوذ على الشرق ماديًا ومعنويًا .

وفزع الغرب أيضًا لأنه وجد أنه يواجه مئات الملايين فجأة من الشرق الذي استفاق وليست بينه وبين هذه الملايين التي تفوق الألف والخمسمائة المليون من ذكريات إلا المرارة والحقد والألم والشكوك .

وفزع الغرب أيضًا لأنه وجد نفسه بمدنيته التي قامت على الحديد والنار والقرصنة والقوة الباغية يواجه شعوبًا ذات حضارة أصيلة لا مدنية زائفة .

شعوب صممت على أن تعيش كريمة وعلى أن تأخذ من المدنية الغربية ما يحفظ عليها قوتها المعنوية .

وستبقى المعركة قائمة بين الشرق والغرب حتى تنتصر الحضارة على المدنية أي حتى تنتصر القيم العليا على أساليب القهر المادية .

أخي في الشرق

أخي في الشرق

في الهند وفي الصين

وأندونيسيا

وفي بورما والملايو

وفي سيلان والأفغان

وإيران وباكستان

أكتب لك هذه الكمات يا أخي وأنا جالس على ضفة القناة

وقد قدمت لهذا المكان لأنشد الراحة

إنني اليوم في أجازة

إنه مكان حبيب إلى قلبك بقدر ما هو حبيب إلى قلبي

والسلام يرفرف هنا

على ضفاف القناة

أخي في الشرق

إن مصر كلها تحرس اليوم القناة

فهي الطريق إليك يا أخي

إنني أحمل السلاح وأنا في الأجازة

لكي أؤمن الطريق إليك يا أخي

obeikandl.com

ولكي يظل السلام

يرفرف على ضفاف القناة

وهم يريدون الحرب

لقد عرفتهم يا أخي

وعرفتهم أرضك المقدسة في الصين

أشرارًا وأنجاسًا

وعرفتهم جبالك ووديانك السمحة في أندونيسيا

لصوص الأرض والمال

وخبرتهم أرضك الطيبة الوادعة في الهند

وكم سلبوك من مال

وقاتلتهم جبالك وفرسانك في الأفغان

زهاء القرن شجعانا

وضاقت بهم الدنيا وأنهارك والأدغال في بورما

وقد سرقوك أجيالاً

أخي في الشرق

في مصر عرفناهم

بلوناهم

طردناهم

obeikandl.com

وإن عادوا شفينا الغليل

للأحرار في الهند

وللأحرار في الصين

وللأحرار في بورما

وللأحرار في البونشاك

سنسقيهم بسقياهم

وسنؤدب شقواهم

لكي نؤمن الطريق إليك يا أخي

ولكي يظل السلام

يرفرف على ضفاف القناة

« من على ضفاف القناة »

obeikandl.com